القصة العربية رؤى وإشكالات (النشأة والتطوّر)

تعد القصة فنا سرديا نثريا، فهي سيدة الأدب المنثور من دون شك، اتّخذها كبار الأدباء وسيلة للتعبير واشتهر عن طريقها فحول الكتاب العالميين أمثال تولستوي، شيخوف غوركي، ديكنز، جيمس جويس... واتخذت منبرا للتعبير عن الاتجاهات الاجتماعية والمذاهب السياسية، والفلسفية، والدينية، والشعبية ... وذلك لسعة انتشارها وقوة تأثيرها.

وهي أكثر الأنواع الأدبية فعالية في العصر الحديث بالنسبة للوعي الأخلاقي؛ ذلك أنها تجذب القارئ لتدمجه في الحياة المثلى التي يتصورها الكاتب، كما تدعوه ليضع خلائقه تحت الاختبار، إضافة إلى أنها تهب المعرفة وتبسط الحياة الاجتماعية في سعة وامتداد وعمق وتنوع.

والقصة هي حكاية تتسلسل فيها الأحداث في حلقات كحلقات فقرات الظهر، أو كدودة الأرض تتموج أجزاؤئها في تتابع كما يقول فورستر، وهذا التسلسل يتضمن الأحداث التي ينتظمها الزمن.

وقد مرت القصة العربية الحديثة والمعاصرة بثلاث مراحل:

أولا_ مرحله التعريب والتقليد: (1914/1850)

وهي المرحلة التي أنكر فيها النقّاد الصّلة بين القصة الحديثة والتراث القصصي عند العرب، ولكنه واضح في الصيغة والمضمون؛ فقد بدت القصة متأثرة بالسير والمقامة، ومنها قصة **حديث عيسى ابن هشام** سنه 1900، وفيها تأثر واضح بالقصة العربية القديمة، إضافة إلى التأثّر الواضح بالقصة الغربية من حيث تسلسل الأحداث وتنويع المناظر، إضافة إلى قصه **علم الدين لـعلي مبارك**، وموضوعها عالم الفكر اسمه "علم الدين" يلتقي بالانجليز ويجري مقارنة بينهم ، وهنا يتأثر الكاتب بأسلوب المقامة.

بالإضافة إلى قصة **الساق على الساق فيما هو الفرياق لـأحمد فارس الشدياق**، وقد كان متأثرا بالمقامة والتراجم الذاتية التي تحدّث فيها عن مرحلة من مراحل حياته وأسفاره بأسلوب المقامة، وغايته في ذلك استعمال الكلمات العربية.

وفي نهاية القرن التاسع عشر ميلادي ظهرت موجة جديدة في القصص الحديث، إثر ترجمه القصص الغربية، وقد نمت في لبنان ومصر وكان أصحابها توّاقين إلى الأدب الغربي مسترشدين به؛ فراحوا يترجمون القصص الغربية التي كانت موضوعاتها في الأغلب رومانسية حول الحب والجنس، دون الانتباه إلى الآثار السلبية التي تتركها على العقيدة والثقافة العربية عامة، وبالتالي كانت منقطعة عن الجذور العربية مصبوغة ومطبوعة بطابع التقليد للغرب، والغاية منها التسلية، ونذكر من ذلك **سليم البستاني** الذي كان الرائد الأول لتأليف القصة في لبنان، فقد ألّف ما بين سنه 1848 و 1884 عددا كثيرا من القصص تراوحت مواضيعها بين التاريخ، والاجتماع، وقد نشرها في مجله **الجنان** ، وقصة **زنوبيا**، وقصه **بدور** سنه 1872، وقصة **أميرة أموية**، وقصه أسماء، وفاتنة، وسلمى، وسامي، وغيرهم...

وبما أنه كان صحفيا فقد اهتم بالموضوعات المختلفة بحسب موضوعات المجلة (الفلسفة والمجتمع)، وعمل على تبسيط اللغة، والاقتراب إلى الدارجة، وقد كان للصحف الدور البارز في اتساع رقعه القصة العربية كصحيفة الأخبار، ووادي النيل، والأهرام...

ثانيا_ مرحلة التكوين والإبداع :(1914/ 1939) وهي فتره ما بين الحربين العالميتين، وقد اعتبرت فتره تكوين الأدب القصصي والروائي عند العرب؛ فالحرب العالمية الأولى وما تبعها من أحداث وتحولات في تركيبة المجتمعات العربية، من تغير في القيم والموازين، ومن تطور في الثقافة والسياسة، والوعي القومي، والانتفاضات الوطنية... كل هذه التحولات الجديدة أدّت إلى بروز ذوقٍ جديدٍ مختلف عن السائد، وتطلبت بناء وأسلوبا جديدين للتعبير عن هذه التحولات الجديدة.

ولكن في هذه المرحلة انتقلت الريادة في فنّ القصة من الكتّاب اللبنانيين إلى المصريين؛ إذ هاجر بعض الكتّاب اللبنانيين إلى مصر بسبب الحروب والفتن الداخلية، وأقبل العديد منهم على العلوم الجديدة وتعّرفوا على الثقافة الأوروبية وأيديولوجيات التحرر والاستقلال، وشكّلوا أحزابا سياسية ومنظمات جديدة، تهتف بالوعي السّياسي والاجتماعي، والتحرر الوطني، كما أسّسوا صحفا تبثّ الاعتزاز بالشخصية المصرية، والروح الوطنية في الشعب حرصا منهم على إحياء التاريخ المصري القديم ،وبثّ روح الأمل في الشعب، والخروج من التخلفات التي يحسون بها عند قياس أنفسهم بالأوروبيين، لذا وسّعوا من نشر الصحف والمجلات وغيروا المناهج والمنظومات التعليمية، ونسقوها حسب المناهج والمنظومات الغربية، وانتقدوا العديد من العادات والتقاليد الشعبية التي تمنعهم من الحركة السريعة نحو التقدم والرقي.

وبالتالي كوّنوا مناخا جديدا وجوًّا مختلفا كان يتطلب جيلا جديدا من الكتّاب ليستوعبوه ويهضموه، ويخرج منه ثمرة جديدة لمجتمع جديد يرنوا نحو التقدم والازدهار.

وأخذت القصة العربية بعد الحرب العالمية الأولى طابع المحلية والقومية، وبدأت تصور فئات من المجتمع المصري واللبناني والسوري بغية تحسين فضائل المجتمعي، وظهر في مصر كتّاب صوروا مجتمعهم خير تصوير، منهم **طه حسين** الذي له دور مهم في إرساء دعائم وقواعد الفن القصصي خاصة في **الأيام** سنه ،1929 **وأديب** سنه 1935 التي انتقد فيها القضايا الاجتماعية والتعليمية والتربوية في المجتمع المصري، إضافة إلى رواية **دعاء الكروان** سنه 1941، كما برز **توفيق الحكيم** في رواية **عوده**

الروح الذي عُنِي بتصوير الواقع والمشكلات الاجتماعية، كما في **يوميات نائب في الأرياف** سنه 1937 **وعصفور من الشرق** سنه 1938.

وبرز **محمود تيمور** الذي اهتم بقضايا ما وراء الطبيعة والروحانيات والميتافيزيقا الشرقية في روايته **نداء المجهول** سنه 1939 وعني أيضا بقضايا اجتماعية ونزعات إنسانية في رواية **سلوى في مهب الريح** ، كما ظهر كل من الكاتب **عيسى عبيد، والطاهر لاشين...**

ومن الملفت للانتباه في هذه المرحلة ظهور اتّجاه جديد عُرف باتجاه **التحليل النفسي**، وتبيان آثاره على الأدب، وقد حمل لواءه كل من **العقاد والمازني** لتأثّرهما بمدرسة التحليل النفسي الغربية، منها ما كتبه **المازني (قصه إبراهيم الكاتب)** سنه 1931،(**وإبراهيم الثاني)، (وعود على بدء)** سنه 1943، وكتب **العقاد** رواية **سارة** سنه 1938 وهي صورة واضحة من منهجي العقادي في التحليل.

وقد بدا الوعي القومي والإحساس بالشخصية العربية بتأثير مصر؛ فقد ظهرت في لبنان قضايا وروايات على غرار القصص والروايات المصرية، وعالجت القضايا القومية والمشاكل السياسية والاجتماعية مثل رواية **العمال الصالحون** سنه 1927 **لإلياس أبو شبكة** التي صورت انتحار طفل في السابعة من عمره ليتخلص من حياه الشقاء التي الحقتها بها زوجة الأب، ثم برز **ملحم كرم** الذي انتقد الرواية اللبنانية من هاوية السقوط وأحياها من جديد مثل **صرخة الأم** 1939، **والشيخ قرير العين** 1944، **و(دمعة يزيد) و(صقر قريش)** وغيرهم، وقد جمع في أعماله الاتجاه التاريخي والاجتماعي.

ومن أعلام القصة اللبنانية نذكر **لطفي حيدر** في قصة **عمر افندي** سنه 1937 التي صورت الكوارث الناتجة عن الحرب العالمية الأولى، و**أحمد مكي** حول اختلاف الأديان في رواية (**النداء البعيد**) **وتوفيق عواد** وهو من أهم الكتّاب في هذه المرحلة من خلال قصة **الرغيف** 1939صور فيها الصراع العربي من أجل الاستقلال .

كما خطت البلدان العربية خطوات مهمة في مجال القصة والرواية في هذه الفترة؛ ففي سوريا ظهرت جهود لافته للنظر منها أعمال **معروف الأرناؤوط** التاريخية كما في **سيد قريش** سنه 1939 **عمر بن الخطاب** 1939 وهي قريبة من جهود الفترة الأولى، أما في العراق والأردن والسودان فإنّ القصة تقل من ناحية الكم والكيف.

ومن الخطوط العامة والمميزات لهذه المرحلة في مجموعها فهي صادقه عبرت عن أفكار الطبقة الوسطى؛ حيث تمثلوا فيها الأحلام والهموم والقيم والموازين التي تتعلق بهذه الطبقة الجديدة المتوسطة، ومن سمات أبناء هذه الطبقة حب الاستكشاف والبحث عن الحقيقة والرغبة في المعرفة، وخوض المخاطر، والتجارب الجديدة التي لا عهد لهم بها ، إضافة إلى التأمل في ملكوت السماوات والارض والكون.

هذه الطبقة البرجوازية التي تتناولها القصص لا نجد فيها تعلقا بالطبقة الأرستقراطية أو تمثيل عاداتهم وقيمهم، ولا نجد الصراع الطبقي والتنظيم الاقطاعي، وظهر الاهتمام بالفرد وقدرته على التخلص من الكوارث والمصائب التي تحدّ من حريته نحو التحرر والانغلاق. ومن الناحية الثقافية فإنّ هذه الأعمال كانت ثمرة من ثمرات امتزاج الفكري الشرقي العربي بالفكر الغربي الأوروبي وتفاعلهما في شتّى المجالات، وتخلصه من ثنائية الثقافة وثنائية الشخصية؛ فقد دبّت الثقافة الغربية في سلوك الكتّاب، كما هي الثقافة العربية الأصيلة، فحدث تفاعل بين الثقافتين وأنتج ثمرة مشتركة.

ومن الناحية الاجتماعية أو فيما يخص القضايا الاجتماعية فإنها طرحت لأجل إيجاد الحلول ومعالجتها وإصلاحها، وكانوا يحملون رسالة اجتماعية وفنية، وأصبحوا مصلحين يبدون مواقفهم حول الصراعات الاجتماعية، ومن الناحية الفنية لم تعد القصص سبيلا للتفقّ أو التسلية أو منبرا لإلقاء المواعظ والنصائح.

أما في الجزائر فقد شهد شهر جويلية من سنه 1925 ميلاد القصة الجزائرية على يد **محمد السعيد الزاهري** الذي نشر في جريدة **الجزائر** محاولة قصصية عنوانها **فرانسوا والرشيد**، ومنذ ذلك الوقت والقصة الجزائرية تنمو وتتطور وتقف على ساقيها وتتقدم بها .

وقد خطت القصة الجزائرية خطوات خجولة طورا وجريئة طورا آخر على يد **محمد السعيد الزاهري** و**محمد العابد الجلالي** و**احمد بن عاشور** و**أحمد رضا حوحو** و**أبي القاسم سعد الله** وقد أسهموا في بنائها ولكنهم لم يكادوا يتجاوزون أسسه إلا قليلا مع تفاوت في الرؤية الخيالية والمعالجة الفنية فيما بينهم.

وقد برز في تلك الفترة مرحلتين: المرحلة الأولى وتنتهي بظهور قصه **غادة أم القرى** لأحمد رضا حوحو، والثانية تنتهي بانتهاء ظهور **سعفة خضراء** لأبي القاسم سعد الله سنة 1955 وباندلاع الثورة التحريرية سنة 1954 وجد القصّاص ظالتهم في الكتابة القصصية والتعريف بالقصة الجزائرية فأنشئت طائفة من المهاجرين المثقفين من الوطن العربي يعالجون في القصة بدافع التعريف بالثورة فظهرت أقلام جديدة من مثل **عبد الحميد بن هدوقه** وعبد الله **ركيبي والطاهر وطار، وعثمان سعدي** وهذه مرحله ثانية.

وبعد الاستقلال ظهر فريق من كتّاب القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة العالية التقنيات الملتصقة بالواقع الاجتماعي الأكثر يومية، وأخذت القصة الجزائرية تترجم إلى بعض لغات عالميه ولاقت الرواج والانتشار.

ثالثا- مرحلة تأصيل القصة العربية: وقد عبرت عن قمة المراحل، واتسمت بالتأصيل وتداخلت من المرحلة السابقة عقدا من الزمن؛ حيث كانت فتره الثلاثينات خاتمة مرحلة التكوين ومدخلا إلى التأصيل، واختارت الرواية والقصة العربية اتجاها جديدا نتيجة لأسباب وعوامل مختلفة، وفي هذه الفترة اطّلع الكتّاب على مناهج وطرق البحث العلمي والأكاديمي، واطّلعوا على أنواع الدراسات النفسية والتحليلية والرمزية، إضافة إلى اطلاعهم على اللغات الأجنبية والدراسات الواسعة في ميادين الأدب، والقصص، والفروع الأخرى للفكر الأوروبي بلغاته الأصلية، وكان للجامعة المصرية فضل السّبق؛ إذ هيأت جيلا حسب الأصول العلمية والمناهج الأكاديمية الحديثة، واحتكت بأنواع العلوم كعلم النفس، والاجتماع، والتاريخ، والفلسفة، وجعلها في متناول اليد، إضافة إلى الدعوة إلى الحرية في التفكير، والإشادة بالقيم الديمقراطية التي عني بها الأساتذة الجامعيون، وبالتالي خرج جيل جديد من الكتّاب اتّجه في كتاباته نحو الواقعية، مستعينا بقوى العقل والمنطق في مواجهه الأحداث والمشاكل، والابتعاد عن النزعة الرومانسية، وقد أطلق على هذا الجيل **جيل الجامعيين**، وكانوا من خريجي الجامعة ك**أحمد علي باكثير** (قسم الإنجليزية) **عبد الحميد جودت السحار** (الاقتصاد والتجارة)، **يوسف السباعي** (الكلية الحربية)، و**إحسان عبد القدوس** (الحقوق)، و **يوسف إدريس** (الطب)، و**نجيب محفوظ** (الآداب والفلسفة)،و**عبد الرحمن منيف** (الاقتصاد)... وقد حاول هؤلاء الكتّاب من الناحية الفنية التخلص من عقد الانبهار والإعجاب بالثقافة الغربية. ورغم التطورات الطارئة على القصة العربية من ناحية البناء الفني إلا أنها ما زالت تحتاج إلى الاكتمال في تشكيل بنائها الفني؛ فهي لم تخرج في معظمها عن قصص وروايات شخصيات أو أحداث، ولم تكتمل من ناحية الأسلوب فهو يتراوح بين تصوير الأحداث والتقرير وهو طابع المقالة، وقد بدأت فترة النهوض مع **نجيب محفوظ** أثناء هزيمة 1967 وتطورت القصة من ناحية المضمون؛ إذ حاول الكتاب بعد نجيب محفوظ استيعاب كل التحولات التي وقعت في المجتمع العربي دون العناية بطابع المحلية، وقد ظهر كتّاب مثل **غسان كنفاني** و**حنّا مينا** و**جمال الغيطاني** و**الطيب صالح** و**غادة السمان** و**حليم بركات** وغيرهم، وأعمالهم وإن تفرقت على المستوى الجغرافي فإنها التقت في قضايا وموضوعات مشتركة كالحرية والتحرر، السياسة والانتماء الوطني والقومي، والصراع الطبقي والقضية الفلسطينية.

أما على المستوى الشكلي فقد ظهرت تنويعات في أساليب السرد وتعدد التقنيات في المزج بين الوصف والتذكر والمشاهد الحوارية مما جعل القصة والرواية العربية تنفصل أكثر فأكثر عن التقليد الأوروبي وعرفت التطور والتقدم كالقصة الأوروبية.

المراجع:

_ محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة (أصولها اتجاهاتها وأعلامها)، منشأة المعارف بالإسكندرية، دط، لات.

_ عبد المالك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.